حاجة الإنسانية إلى الإسلام
ماضيا وحاضرا ومستقبلا

الدكتور قادة بن بن علي
جامعة الجيلالي اليابس. سيدي بلعباس

جاء الإسلام والمجتمع الإنساني في أشدّ أزماته التي أحاطت به من جميع النواحي الدّينيّة والسّياسيّة

والإقتصاديّة والإجتماعيّة والأخلاقيّة، والذي يستقرئ التّاريخ يقف على أسوأ ما روي، فقد كانت الأوضاع متردّية إلى أقصى حدّ (1)، وبلغت الجهالة أوجها وسادت الخرافات وانتشر الظّلم وعمّ الطّغيان والبغي، وانحرفت البشريّة عن الطّريق السّوي، وضيّعت الأمانة ولم تقم بأعباء الخلافة في الأرض. وفي وسط هذه الإنحرافات والضّلالات، أذن الله بقيام الأمّة الوسط التي عهد إليها بقيادة البشريّة وجعلها خير أمّة أخرجت للناس، فتغير مجرى تاريخ البشريّة، وظهر عهد جديد قوامه العدل والأخوّة الإنسانيّة والمساواة، وقاعدته الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصّمد، ورفض الخرافات مهما كان نوعها وأيّا ما كان مصدرها، وكانت حياة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وخلفائه مثالا يحتذى به وقدوة لا يوجد لها نظير، وانطلق مجتمع الرّعاة للغنم إلى المحيط الهادي شرقا، وإلى الهند والصّين، إلى إندونيسيا وباكستان، إلى الفلبين، إلى الأطلسي غربا، وصولا إلى أسبانيا وإيطاليا، بقيادات قتيبة بن مسلم ،وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعقبة بن نافع وغيرهم، فانطلقوا بكلمة التوحيد وبموازين الحق والعدل والأمن والسلام، يصنعون التاريخ ويخطّطون لعمارة الأرض، ويخرجون النّاس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان الى عدالة الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فكانوا بحق خير أمّة أخرجت للناس.

وقد استطاع الإسلام خلال القرن الأول أن يبلغ بدعوته ما بين الشرق والغرب وأن يضم تحت جناحه أمما وشعوبا، اختلفت لغاتها وألوانها، وتباينت طبائعها وعاداتها. وساد العمران في أنحاء الدّولة الإسلاميّة التي ظلّت رقعتها تتسع

يوما بعد يوم، وتستقطب شعوبا جديدة أضناها الظلم وأضاعها الفساد، لتجد في أحضان الدّين الجديد إطلاق سراحها وصلاح أحوالها ومتنفس أحزانها، وقد وجدوا فيه ما يدعوهم إلى العمل ويحرّضهم على العلم، فظهرت آثار العلماء المسلمين في الرّياضيات والفلك والعلوم الطّبيعيّة والفيزياء والكيمياء وغيرها ... ونظرا لأهمية الموضوع وشساعته ارتأيت أن أقسمه إلى قسمين أتناول في الأول حاجة الإنسانيّة إلى الإسلام ماضيا، وفي الثّاني حاجة الإنسانيّة إلى الإسلام حاضرا ومستقبلا .

أولا : حاجة الإنسانيّة إلى الإسلام ماضيا

لقد ظهرت حاجة الإنسانيّة إلى الإسلام ماضيا إلى ما عانته من الظلم والإستبداد، ومن أزمات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية، وكذلك إلى ما تميزت به رسالة الإسلام من مميزات وخصائص والتي نلخصها فيما يلي:

1- أنها عالميّة :

انّ من ميزات الإسلام الأولى عالمية رسالته(2). فليس فيه تخصيص قط، فالدين الإسلامي في جوهره مفتوح للجميع، ودعوة القرآن الكريم موجهة إلى كافة النّاس على اختلاف مشاربهم ، وتباين عاداتهم وتقاليدهم، وقد قال الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وسلم : " **قل يا أيها النّاس إنّي رسول الله إليكم جميعا** " (3)، وقال له أيضا : " **وما أرسلناك إلاّ كافّة للنّاس بشيرا ونذيرا ، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون** " (4). فالرسالة الإسلاميّة الذي تستمد أصولها من القرآن والسّنّة واجتهادات الفقهاء، تتلاءم مع مصالح الأفراد وحاجاتهم ، وما يتطلبه المجتمع المتطوّر ، فهي لم تأت لوقت دون وقت أو لعصر دون عصر ، وإنّما هي للبشريّة جميعا من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فنصوصها وأحكامها لا تؤثر فيها مرور الزمن ولا تعاقب السّنين ، فهي صالحة لكلّ زمان ومكان (5). وفي هذا يقول الشّيخ الرّفاعي " نزلت الشّريعة لتطبّق في كلّ زمان ومكان ، فهي تشمل كلّ ما يهمّ الإنسان في حياته ... عقيدة وشريعة، أخلاقا ومعاملات " (6).

فالإسلام باعتباره آخر دين منزّل يضم تحت لوائه جميع الرسالات السّماوية التي سبقته، ولذا نجد المسلم ملزماً بأن يؤمن بالرسالات الالهية التي سبقت رسالة الإسلام، قال الله تعالى : " **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربّه**

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير " (7)

2- أنها تقوم على الوسطيّة والاعتدال :

الوسطيّة هي إحدى المعالم التي يميّز بها الله تعالى أمّة الإسلام عن غيرها من الأمم ، قال الله تعالى : " **وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا** " (8)، فأمّة الإسلام هي أمّة العدل والاعتدال التي تشهد في الدنيا والآخرة على كلّ انحراف يمينا أو شمالا عن خطّ الوسط المستقيم (9)، فالإسلام يطلب من المسلمين الوسطيّة والاعتدال بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة معا ، لأنّ الدنيا مرتبطة بالآخرة ، والدنيا دار عمل وابتلاء وامتحان ، والآخرة دار حساب وجزاء ، وعندما ترتبط الدنيا بالآخرة في حسّ المسلم ، فإنّه يعمل للآخرة كما يعمل للدنيا ، فهو إنسان متوازن يعيش لدنياه كما يعيش لأخراه ، ولهذا يقول المولى عزّ وجلّ : " **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إنّ الله لا يحبّ المفسدين**" (10) كما يصف المسلمون الذين يدعون ربهم قائلين : " **ربّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**" (11)

وممّا يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلّم ، أنّه كان يقول : " **اللهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيا معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي** " (12) .

وتتجلى الوسطيّة في الرسالة الإسلامية أيضا في أنّ الأحكام التي جاءت بها على نوعين :

1-أحكام لإقامة الدين ، وتشمل أحكام العقائد والعبادات .

2-أحكام المعاملات ، وتخصّ أحكام الأحوال الشخصيّة والدستوريّة والدوليّة والجنائيّة والاقتصادية...

فالتشريع الإسلامي على تنوّع أحكامه وتعدّدها ، جاء بقصد إسعاد الناس في الدنيا والآخرة ، وتحقيق مصالحهم وإقامة المساواة والعدل بينهم، يقول

الإمام الشاطبي في كتابه : - الموافقات - " إنّ أحكام الشريعة ما شرعت إلا لمصالح الناس، وحيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله " (13).

3- أنها تقوم على الواقعية والمثالية :

لقد بنى الإسلام تشريعه على أسس تتماشى مع الفطرة الإنسانية ، لأنّ الإسلام دين ينبع من أعماق الإنسانية ، ويدعوا إلى الحياة الفاضلة السعيدة، يقول الشيخ محمد عبده " إنّ الإسلام أكثر ملائمة لمقتضى الفطرة السليمة ، فأباح الطيبات من الرزق ، ولم يكلف نفسا إلا وسعها ، فكان الدين الإسلامي أكثر ملائمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها " (14) .

4- أنها تدعوا إلى المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة

لقد كرّم الله سبحانه وتعالى الإنسان بأن خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته ، وسخّر له ما في السماوات والأرض جميعا منه. وجعله خليفة عنه، وزوّده بالقوى والمواهب ليسود الأرض ، وليصل إلى أقصى ما قدّر له من كمال مادي ، وارتقاء روحي، وقد حرص الإسلام على تقرير مبدأ المساواة في القيمة الإنسانية في أكمل صورها ، فأكد على أنّ الناس سواسية في أصل خلقهم الأول وفي طبيعتهم البشرية ، وأن ليس ثمة تفاضل في إنسانيتهم، وإنّما يجري التفاضل على أساس تفاوتهم في الكفاءة والتعلم والأخلاق والأعمال ...... وإلى غير ذلك ، وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ : " **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ، إنّ الله عليم خبير** " (15)، وفي شرحه لهذه الآية يقول الدكتور عبد الواحد وافي: " أي إنكم جميعا منحدرين من أب وأم واحدة ، فلا فضل لأحدكم على الآخر بحسب عنصره وطبيعته ، وإذا كان الله تعالى قد جعلكم شعوبا وقبائل ، فإنّه لم يجعلكم كذلك لتفضيل شعب على شعب أو قبيلة على قبيلة ، وإنّما قسّمكم هذا التقسيم ليكون ذلك وسيلة للتعارف والتمييز والتسمية، كشأن الأفراد يحمل كلّ منهم إسما ليعرف به ويتميّز عمّن سواه، والتفاضل بينكم في نظر الله إنّما يجري على أساس أعمالكم ومبلغ محافظتكم على حدود دينكم، فأكرمكم عند الله أتقاكم" (16).

وفي آية أخرى يقول الله تعالى : " **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء** " (17)، هذه الآية تقرّر حقيقة لا يمكن تجاهلها، ألا وهي أنّ الجنسين الذكر والأنثى يرجعان

كلاهما إلى أصل واحد ، وهذا ما أكده الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع التي جعلها دستورا للمسلمين من بعده : " **يا أيها الناس إنّ ربكم واحد ، وإنّ أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم ، ليس لعربيّ على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتقوى ، ألا هل بلّغت ؟ اللهمّ فاشهد ، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب** " (18) .

وقد سمع مرّة النبيّ صلى الله عليه وسلم أبا ذرّ الغفاريّ يقول لبلال الحبشيّ يا ابن السوداء ، فظهرت آثار الغضب الشديد على وجهه صلى الله عليه وسلم ، فانتهر أبا ذرّ وقال له : " إنك امرىء فيك جاهليّة ، كلكم بنو آدم ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلاّ بالتقوى أو عمل صالح " فوضع أبو ذر خدّه على الأرض وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلّته هذه ، ويكفّر عنه ما بدر منه من خلق الجاهليّة الأولى (19) .

وقد ساوى الإسلام بين جميع أفراد البشر في التكريم بقطع النظر عن كونه مؤمن أو غير مؤمن بقوله تعالى : " **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** " (20) .

5- أنها رسالة تدعوا إلى العلم والتعلّم

نظرا لما للعلم من أهميّة كبيرة في حياة الإنسان ، لأنّ به تنهض الأمم والشعوب فتحقق لأبنائها الخير والسعادة والرفاهيّة ، وبه يتحرّر الإنسان من الأوهام والخرافات والأضاليل والجمود ، فقد اهتمّ الإسلام به اهتماما كبيرا فحثّ على تعلّمه وتعليمه ، وجعل له منزلة عالية في الحياة ، ورفع من منزلة العالم درجة عالية ، حتى أنّ الله عزّ وجلّ ساوى شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة في وحدانيته فقال : " **شهد الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط** " (21) .

كما رفع مقام العلماء بين الناس درجات بقوله : " **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** " (22) ، كما ذكر أنّ العلماء أشدّ خشية لله بقوله عزّ وجلّ : " **إنما يخشى الله من عبـــاده العلماء** " (23) ، ويشيد الله تعالى بالعلم والعلماء فيقول : " **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكّر أولوا الألباب** " (24) .

كما جاءت الآيات الأولى التي نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم منطوية على تعظيم العلم ووضعه في المكانة الأولى من نعم الله تعالى على الإنسان ، ومن دلائل عظمته وقدرته فقال سبحانه وتعالى : " **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** " (25).

كما أمر الله عزّ وجلّ من نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم أن يطلب المزيد من العلم لفضله العظيم ومنزلته الرفيعة فقال: " **وقل رب زدني علما** " (2).

وقد رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة تشيد بالعلم والعلماء وتحث على تعلمه وتعليمه من ذلك :

1- قوله عليه الصلاة والسلام : " **طلب العلم فريضة على كلّ مسلم** "، وقوله أيضا : " **فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا** " (27) ، وقوله : " **من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له به طريقا إلى الجنة** " (28)، كما حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم ولو بالصين : " **أطلبوا العلم ولو بالصين** " فيه إشارة إلى طلب العلم مهما بعدت دياره وحيثما كان ، لأنه عنصر من عناصر الشخصية القوية ، وسبيل إلى التقدم والرقيّ والازدهار .

2- ومما يزيد العلماء فضلا أنّ الإسلام يعتبر العلم النافع امتدادا صالحا لعمل العالم ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : " **إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له** " (29) .

3- ولم يفرّق الإسلام بين الرجل والمرأة في حقّ التعلم والثقافة ، فقد أعطى للمرأة نفس الحقّ الذي أعطاه للرّجل ، وأباح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من العلوم والآداب والثقافة ، بل إنه ليوجب عليها ذلك في الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بأمور بيتها ورعاية زوجها وتربية أولادها، وقد اعتبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة وركنا من الإيمان بالله ، شأن المرأة في ذلك شأن الرجل سواء بسواء ، ففي الحديث الشريف عن أنس بن مالك رضي الله نعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **طلب العلم فريضة على كلّ مسلم** " ولفظ المسلم في الحديث يشمل الذكر والأنثى على السواء، فللمرأة حقها الكامل في التعلم و التعليم (30). ولقد أمر الله

تعالى نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتعلّم والتعليم مساهمة في نشر الدين الإسلاميّ .

قال الله تعالى : " **واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة ، إنّ الله كان لطيفا خبيرا** " (31)، وفي حديث البخاري عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن في الدين** " (32)، وقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم أروع مثل في تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة في حقّ التعلّم والثقافة ، وفي حرصه على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة أمّ المؤمنين ، فقد روى أنّ الشفاء العدويّة وهي سيّدة من بني عديّ رهط عمر بن الخطاب ، كانت كاتبة في الجاهليّة ، وكانت تعلّم الفتيان ، وأنّ حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولمّا تزوّجها عليه الصلاة والسلام طلب إلى الشفاء العدويّة أن تتابع تثقيفها، وأن تعلّمها تحسين الخطّ وتزيينه كما علّمتها أصل الكتابة (33)

وهكذا نرى الإسلام يحرص على التعلّم والتعليم ، ويبيّن مكانة العلم العظمى ومنزلته العليا ، ممّا يبيّن أنّ التعلّم حقّ لكلّ إنسان ، والناس سواسية في طلب العلم ، فلا فرق بين غني وفقير ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين كبير وصغير ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **أطلبوا العلم من المهد إلى اللحد**"

6- أنها رسالة تدعوا إلى المؤاخاة والتسامح بين الأديان

فكما أخى الإسلام بين البشر جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، دعا كذلك إلى المؤاخاة بين الأديان كلّها، والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين. قال الله تعالى :" **قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**" (34)

كما أمر الإسلام أتباعه ألاّ يجادلوا أصحاب الديانات الأخرى إلاّ بالتي هي أحسن:" **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن**" (35). وهذا ما دفع بأصحاب الديانات الأخرى إلى الدخول في الإسلام أفواجا لإتباعه هذا الأسلوب في الدعوة وتركه الحريّة التامّة المطلقة لكلّ صاحب دين أن يبقى على دينه، فلا اضطهاد ولا إكراه، بل التسامح هو السبيل الوحيد لتقريب وجهات النظر: "لا

إكراه في الدين قد تبيّن الرّشد من الغيّ " (36)، فقد كفل الإسلام حريّة الفرد فيما يعتقد، فلا يكره إنسان على أن يدخل فيه، لأنّ ذلك يصادم طبيعة فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فدعا إلى الإيمان عن طريق الإقتناع بالطّريقة المهذّبة وبالتي هي أحسن.

ويعترف المستشرق البريطاني السيّد " أرنولد " الأستاذ بجامعة لندن سابقا في كتابه " الدّعوة إلى الإسلام " بالتسامح الدّيني عند المسلمين، ويؤكّد أن القبائل المسيحيّة التي دخلت في الإسلام إنما فعلت ذلك عن إرادة واختيار، ثمّ يقول: " إننا لو نظرنا إلى التسامح الذي امتدّ إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، لظهر أنّ الفكرة التي شاعت بأنّ السّيف كان العامل في تحويل النّاس إلى الإسلام بعيدة عن التّصديق ". ثمّ يسرد الأمثلة الكثيرة التي تؤكّد كلامه، وتبيّن أنّ جميع من دخل في الإسلام إنما دخل بإرادته المطلقة (37) .

ومن سماحة الإسلام مع أهل الذّمّة واحترامه لأماكن عبادتهم، أنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لمّا ذهب إلى بيت المقدس لم يصل في كنيسته، فقيل له ألا تجوز فيها الصّلاة فقال : خشيت أن أصلي لله فيها، فيزيلها المسلمون من بعدي ويتّخذونها مسجدا (38) .

ثانيا : حاجة الإنسانيّة إلى الإسلام حاضرا ومستقبلا

يموج عالم اليوم في أزمات ومحن ويصارع ألوانا من الكوارث والفتن، ويتخبّط في ظلمات الإلحاد والكفر، ويعاني صراعات عقائديّة إعتبرت الأديان خرافات وأساطير، ويمارس إنحرافات أخلاقيّة وصورا من الفسق والإباحيّة لم تعرفها البشريّة في تاريخها الطّويل، ويعيش تحت نظام الغاب حيث يأكل القويّ الضّعيف وتسيطر قوّة السّلاح بدلا من قوّة الحقّ والقانون .

وفي خضمّ هذه الأحداث وأمام عجز الهيئات الدّوليّة عن تخفيف حدّة الصّراع والسّعي إلى إقرار السّلام وتوفير الأمن للشّعوب والمجتمعات، يتطلّع النّاس إلى وسائل الخروج من هذه الأوضاع المزرية والمتدهورة على جميع المستويات، وكأنّ التّاريخ يعيد نفسه، وبقي أن نتساءل، هل إلى الخروج من سبيل ؟ وكيف إلى هذا الخروج ؟ ومن هو ذلك الذي سيقود العالم إلى ذلك الخروج ؟

الحقيقة أنّ البشريّة لا تستطيع أن تعيش بعيدة عن فطرتها التي خلقها الله عليها فترة طويلة من الزّمن، فهي تتعطّش إلى نظام ينقذ العالم ممّا ينحدر إليه من الإنحطاط والتدهور في كلّ أوضاعه الإقتصاديّة والسّياسيّة والأخلاقيّة، ويتطلع بشوق جارف إلى من يأخذ بيده لينقذه من محنه وفتنته وتداعيه. ذلك لأنّ القوانين والنظم الوضعية أثبتت فشلها في إسعاد الناس وطمأنتهم، فقد شهد الناس في هذه القوانين الإفلاس الرّوحي، والتحلل الأخلاقي، والإنهيار الاقتصادي والإلحاد الفكري، وتحت ظلها شقت الأمم بالحروب والإستعمار، ولا زالت تشقى إلى يومنا هذا من ثقافة الهيمنة، وسيطرة القوي على الضّعيف، وذلك لانتفاء الجوانب الخلقيّة والرّوحيّة لهذه القوانين والنظم وفي هذا يقول أحد كبار العلماء الغربيّين (سبنسر) " بعد الثّورة الفرنسيّة أخذ المشرّعون الأوربيّون في تجريد القوانين من كلّ ما له مساس بالدّين والأخلاق والفضائل الإنسانيّة ، فاقتصرت رسالة القانون على تنظيم علاقات الأفراد الماديّة وما يمسّ نظام الأمن ونظام الحكم ..." (39) .

ولهذا فعالمنا اليوم في أمسّ الحاجة إلـــى مقاييس جديدة تحكمه وتزيل ما يعانيه من أزمات فكريّة واجتماعية واقتصادية وخلقيّة، وإلى قوانين ونظم توفّر له الأمن والسّلام وتحقق له العدل والمســـاواة، وترفع عنه الظّلم والطّغيان، ولا أرى نظاما آخر قادرا على توفير هذه المطالب غير النّظام الإسلامـــي(40)، فهو المنهج الوحيد الذي يعيد الإنسانية إلى المسار الصحيح، وإلى الطريق المستقيم، وينقذها مما تتردى إليه من الدمار والإنحطاط، ويحقق لها مثلها العليا، وإنسانيتها الكاملة، ذلك لأن الإسلام جاء بمنهج كامل للحياة، يشمل الدنيا والآخرة، ويشمل العبادات والمعاملات، ويجعل للعمل جزاء، كما يجعل للعبادة أجرا، و يلبي طلبات الإنسان من ولادته إلى وفاته، بل حتى قبل ولادته(41) وبعد وفاته (42)،

لقد ظهر في بلاد الغرب كتّاب مشهورون لفتوا النظر إلى الأخطار المحيطة بالبشريّة، ويعتقد بعضهم أنّ الإسلام وحده هو الدّين المؤهّل للقيادة الحكيمة لأنّه يعني بالدّنيا كما يعني بالدّار الآخرة وبالفرد والمجتمع، ويؤمن بالحرية والإخاء والعدل والإحسان، كما يحرص على تكريم الإنسان ويطالب بأداء رسالته كخليفة الله في الأرض، ويؤكد هذا القول الدكتور محمّد عبد المنعم خفاجي حيث يقول: " فللإسلام من تاريخه الحضاري العظيم، وله من ماضيه الخالد في قيادة العالم وتوجيهه، وله من مبادئه وقيمه ومثله وفلسفته، له من كل ذلك براهين

قويـــة لاتقبل الشك، على أنه هو القائد والرائد المنتظر للعالم، وعلى أنه لن يصلح غيره في تهذيب الحياة وتوجيهها، وفي بناء الحضارة ودعم صرحها " .

فالإسلام لم يجئ بالعقيدة الدينية وحدها، ولا بالنظام الأخلاقي المثالي الذي يقوم عليه المجتمع فحسب، بل جاء مع هذا وذاك بالشريعة المحكمة العادلة، التي تحكم الإنسان وتصرفاته ومعاملاته في خاصة نفسه، وفي علاقاته بأسرته، وفي علاقاته بالمجتمع الذي يعيش فيه، وفي علاقة دولته بالدول الأخرى، وبذلك يكون الإسلام قد أتى بالتشريعات التي لا بدّ منها لقيام المجتمع الصالح الذي يسود فيه العدل والمساواة والسلم والرفاهية والازدهار.

ولهذا فالتشريع الإسلامي يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة المتطورة، وفي هذا يقول الدكتور السنهوري في مذكرة تنقيح القانون المدني المصري " ... فالشريعة الإسلامية تعدّ في نظر المنصفين من أرقى النظم القانونية في العالم، وهي تصلح لأن تكون دعامة من دعائم القانون المقارن، ولا تعرف في تاريخ القانون نظاما قانونيا قام على دعائم ثابتة من المنطق القانوني الدقيق ما يضاهي الشريعة الإسلامية، فإذا كان لنا هذا التراث العظيم، فكيف جاز لنا أن نفرّط فيه ؟ ..." (43) .

ويشهد على صلاحية الشريعة الإسلامية لكلّ زمان ومكان وعلى تفوقها على القوانين الوضعية نخبة من علماء الغرب، منهم الدكتور " ايزيكو نسابانو" حيث يشهد بأنّ " الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتا " (44). ويؤكد هذه

الشهادة الأستاذ " شبرل " عميد كلية الحقوق سابقا بجامعة فيينا، حيث يقول: " إنّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد صلّى الله عليه وسلّم إليها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة " (45).

والإسلام حرّر النفس البشرية من عبودية غير الله، فقضى على الوثنية والإسلام أول وحدة عقائدية وسياسية في حياة العرب، فقضى بذلك على النزعات القبلية والعنصرية، كما قضى على حاكمية البشر، وأعلن أنّ الحاكمية لله تعالى، لقوله عزّ وجلّ : " **إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه ذلك الدّين القيّم ولكنّ**

أكثر الناس لا يعلمون "(46)، وحقق الأمن والسلام، ونشر العدل والمساواة، وقدم للإنسانية تراثا ضخما من العلم والحضارة لا تزال تعيش على آثاره حتى اليوم .

الخـاتمـــة

لعله اتضح لنا من خلال ما سبق، أنّ الإنسانية بحق في حاجة إلى الإسلام، فهو النظام الوحيد الذي يستطيع أن يعيد الإنسانية إلى المسار الصحيح، وإلى الطريق الحق. فكما أنقذ البشرية في الماضي وحررها من الظلم ومن كل الخرافات والانحرافات والضلالات، فهو قادر على إنقاذها اليوم مما تتردى إليه من الدمار والهلاك والخراب والضياع، ويحقق لها مثلها العليا، وإنسانيتها الكاملة، وفطرتها الخالصة، وذروة سعادتها، وجماع أهدافها، ذلك لأنّ الإسلام هو الرسالة الخاتمة التي أنزلت بعد أن اكتمل للبشرية نضجها وإدراكها، وأنها الرسالة السماوية الوحيدة التي عالجت قضايا البشرية والإنسانية بصورة شاملة، حيث رعت متطلبات الروح والجسد من غير أن يطغى أحدهما على حساب الآخر، وهو نظام يقوم على العدل والمساواة لا على أهواء الناس، قال الله تعالى : " **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** " (47)، وهو نظام كما يقول د. محمد مهنا العلي " يحتوي على أروع النظم الاجتماعية وأسلم النظم السياسية وأعدل النظم الاقتصادية، وكل ذلك ليحقق للناس حياة حرة كريمة، وعيشة هنيئة في الحياة الدنيا، وسعادة ونعيما في الدار الآخرة " (48)، وقد صنع حضارة لم تر الإنسانية لها من قبل ولا من بعد مثيلا، في نشر العلم والمعرفة و العدل والمساواة والسلام في كل مكان حل فيه (49).

إلا أن الأمة الإسلامية بوضعها الحالي الممزق سياسيا، والمتدهور اجتماعيا، والمتأخر تكنولوجيا وعلميا، والضعيف اقتصاديا، لن يكون لها دور الطليعة والقيادة في هذا العالم – كما كان لأسلافها في الماضي – ما لم تعد إلى أصالتها وحضارتها فتعالج ما أصابها من وهن وذل وهوان، وتحقق وحدتها، وتستردّ كرامتها المهدرة، ودورها القيادي والحضاري (50)، مصداقا لقوله تعالى: " **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** " (51)، فهذا الوصف لهذه الأمة يدل دلالة واضحة على أن لهذه الأمة دورا يختلف عن أدوار الأمم الأخرى، فهذه الأمة أخرجت للناس، وبناء الفعل لغير الفاعل يشير إشارة واضحة إلى أنّ "خروج" هذه الأمة عمل مقصود لذاته، ولما

يحققه من أغراض كثيرة للإنسانيّة، فدورها دور يختصّ بالنّاس، لأنّها أخرجت لهم، وصنعت من أجلهم، والصّانع هو الله تعالى، فهو بحكمته الخالصة، وبرحمته بالنّاس صنع لهم هذه الأمّة فأحسن صنعها وإخراجها، وأعطاها الدّور الذي لا يجدر بأمّة غيرها أن تحمله، ألا وهو دور الطّليعة والقيادة، والمثال المحتذى، وبما أنّ الله هو أحسن الخالقين يصفها بأنّها خير أمّة فلا بدّ أن تكون كذلك.

ومن الطّبيعي أن يكون دور الطّليعة والقيادة منوط بخير أمّة أخرجت للنّاس لأنّ إعطاء القيادة لغيرها يعني أن يكون الأفضل تابعا لمن هو أقلّ منه فضلا، وأن يكون صاحب الخير الأكبر خاضعا لتوجيه من لم يؤت مثل نصيبه من الخير، وهذا لا يؤدّي إلا لشقاء الأمم والشّعوب، وشقاء البشريّة عموما.

وأختم بحثي هذا بقول العالم المسيحي "برنارشو" :" إنّي أكنّ كلّ تقدير لدين محمّد لحيويّته العجيبة، فهذا الدّين هو دين الوجود، الذي يبدو لي أنّ له طاقة هائلة لملاءمة أوجه الحياة المتغيّرة والصّلاحيّة لكلّ العصور، لقد درست حياة صاحب هذا الدّين، وفي رأيي أنّه يجب أن يسمّى منقذ البشريّة، دون أن يكون في ذلك عداء للمسيح، وإنّي لأعتقد أنّه لو أتيح لرجل مثله أن يتولّى منفردا حكم هذا العالم الحديث لحالفه التّوفيق في حلّ جميع مشاكله بأسلوب يؤدّي إلى السّعادة والسّلام اللّذين يفتقر العالم إليهما كثيرا، وإنّي أستطيع أن أتنبّأ بأنّ العقيدة التي جاء بها محمّد ستلقى قبولا حسنا في أوروبا في الغد، وقد بدأت تجد آذانا صاغية في أوروبا اليوم " (52).

الإحـــالات

1- فالتّعاليم المثنويّة والمزدكيّة التي سادت الامبراطوريّة الفارسيّة لم تعد صالحة، والاغتيال للاستيلاء على العرش أصبح سنّة، والحرب مع الإمبراطوريّة البيزنطيّة لا يطفأ أوارها حتّى تشبّ من جديد، ولم تكن هذه الإمبراطوريّة بأحسن حال، والرّسوم الباهتة والطّقوس البالية هي كلّ ما تبقّى من اليهوديّة والنّصرانيّة اللّتان استحكم بينهما العداء، والحال في المجتمع العربي لم يكن بأحسن منه في غيره، فحياتهم خمر وميسر، وسلب ونهب، وقتل ووأد البنات وحرمانهنّ من الميراث، وعبادة الأصنام، حتّى أصبح لكلّ قبيلة ربّ، وكان يحيط بالكعبة ثلاثمائة وستّين صنما أو أكثر.

2- يقول الأستاذ حبيب الشّطي في هذا الموضوع : " إنّ من ميزات الإسلام الأولى عالميّة رسالته، فليس فيها تخصيص قطّ، والدّين الإسلامي مفتوح للجميع، ودعوة القرآن موجّهة إلى من يسمعها ...". رسالة الإسلام، رسالة عالميّة ". مجلّة رسالة اليونسكو، باريس، سبتمبر 1981، ص 15

3- سورة الأعراف - الآية 158 -

4- سورة سبأ - الآية 28 -

5- حتى يكون التشريع صالحا لكل زمان ومكان، يجب أن يكون في طبيعته وأصوله ومصادره ما يجعله قابلا للتطور حسب الزمان والمكان، وهذه الميزة لا نجدها إلا في التشريع الإسلامي، فقد بدأ يعرف التطور منذ أيام الخلفاء الراشدين، وذلك عن طريق استحداث مصادر جديدة كالاجماع والقياس، وزاده تطوره ظهور المصادر الاجتهادية الأخر كالاستحسان، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف .... في عصر ظهور المذاهب الفقهية الكبرى :الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنابلة .

6- الشيخ منصور الرفاعي عبيد، " نظام الحكم في الإسلام "، الدار الثقافية للنشر، ط01، القاهرة ص 68

7- سورة البقرة- الآية 285 -

8- سورة البقرة - الآية 143 -

9- أنظر حسن رمضان فحلة، "مقومات الحضارة الانسانية في الإسلام "، دار الهدى ط01، ص 142 .

10- سورة القصص - الآية 77 -

11- سورة البقرة - الآية 201 -

12- حديث متفق عليه، أنظر، جواهر البخاري وشرح القسطلاني، دار الفكر، بيروت، 1341 ، ص 576

13- الإمام الشاطبي، الموافقات، نقلا عن د. عبد العفيف طبارة، المرجع السابق، ص 307.

14- الشيخ محمد عبده، مقاصد القرآن، نقلا عن الأستاذ حسن رمضان فحلة، المرجع السابق، ص 138

15- سورة الحجرات - الآية 13 -

16- د. عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، دار النهضة، ط 04، مصر، 1967، ص09

17- سورة النساء - الآية 01 -

18- الأستاذ حسن رمضان فحلة ،المرجع السابق، ص163 .

19- د. عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، المرجع السابق، ص10

20- سورة الإسراء - الآية 70- .

21- سورة آل عمران - الآية 18 -

22- سورة المجادلة - الآية 11 -

23- سورة الزمر - الآية 09 -

24- سورة فاطر - الآية 28 -

25- سورة العلق - الايات 01 إلى 05-

26- سورة طه - الآية 114 -

27- رواه الترمذي، نقلا عن د. صلاح عبد الغني محمد، الحقوق العامة للمرأة، ج01، مكتبة الدار العربية للكتاب،سنة 1998، ص190.

28- أنظر د. صلاح عبد الغني محمد، نفس المرجع، ص 190.

29- أنظر د. محمد رأفت عثمان، المرجع السابق، ص 61 .

30- أنظر د. صلاح عبد الغني محمد، المرجع السابق، ص 189 و 190 .

31- سورة الأحزاب- الآية 34 -

32- رواه البخاري، نقلا عن د. صلاح عبد الغني، المرجع السابق، ص 194

33- أنظر د. علي عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، المرجع السابق، ص 32.

34- سورة البقرة الآية 256.

35- سورة البقرة الآية 136.

36- سورة العنكبوت الآية 46.

37- أنظر د أرنلد الدعوة إلى الإسلام، نقلا عن د. مصطفى سباعي أسس الدولة الإسلامية، ص236.

38- أنظر الإمام أبو زهرة، "تنظيم الإسلام للمجتمع" دار الفكر العربي، القاهرة، سنة 1965 ص185

39- راجع د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص157.

40- أنظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 105.

41- كحق الجنين في الوصية، وفي الميراث، فقد نص المشرع الجزائري على هاتين الحقين في قانون الأسرة، فقد جاء في المادة 187: " تصح الوصية للحمل بشرط أن يولد حيا، وإذا ولد توائم يستحقونها بالتساوي ولو اختلف الجنس"، وجاء في المادة 134 على ما يلي : " لا يرث الحمل إلا إذا ولد حيا ويعتبر حيا إذا استهل صارخا أو بدت منه علامة ظاهرة بالحياة ".

42- كحق الميت في تجهيزه، وتسديد ديونه، وتنفيذ وصاياه، انظر المادة 180 من قانون الأسرة 43- انظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص155.

44- أنظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص164.

45- أنظر د. طه عبد الباقي سرور، المرجع السابق، ص 165.

46- سورة يوسف - الآية 40 -

47- سورة المائدة - الآية 49 -

48- انظر محمد ميثا العلي ـ الإدارة في الإسلام ـ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، 13

49- قال الأمير تشارلز ولي العهد البريطاني، في ندوة تحت عنوان " الإسلام والغرب "، بجامعة أكسفورد البريطانية، لدى تطرقه إلى مساهمة الإسلام في تكوين الحضارة الأوروبية : " الإسلام ساعد على إنشاء أوروبا العصرية وهو يمثل جزء من تراثنا ". جريدة المساء، بتاريخ 30 / 10 / 1993.

50- يقول الكاتب الأمريكي (لوثروب استودارد) في مقدمة كتابه حاضر العالم الإسلامي " ظهور الإسلام في أمة كانت قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، ومنحطة الشأن، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقا ممالك مترامية الأطراف، وهادما أديان قديمة كرت عليها الحقب والأجيال، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيا عالم الإسلام ... وهكذا رأى الناس بالتجربة الثابتة أن الإسلام هدى وشفاء وأنه الدواء الوحيد لإنقاذ الأمم متى طبقت قوانينه وتعاليمه تطبيقا صحيحا ". انظر الشيخ محمد الصالح النيفر، الإسلام وخلوده، مجلة المعرفة، العدد05، ماي 1979، تونس، ص18.

51- سورة آل عمران الآية 110.

52- انظر د. محمد الفحام، الإسلام صالح لكل زمان ومكان، مجلة الفكر الإسلامي، ع 04، الجزائر، سنة 1972، ص 83.